

الهمة طريق
إلى القمة

تأليف

محمد بن حسن بن عقيل موسى

دار الأندلس الخضراء للنشر والتوزيع ، ١٤١٥ هـ .

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية

موسى ، محمد بن حسن بن عقيل

الهمة طريق إلى القمة

٨٠ ص : ٢٠ سم

ردمك ١-٩-٧٩١-٩٦٠

١ - الأخلاق الإسلامية ٢ - الفضائل ١ - العنوان

١٥/١٦٣٨

ديوي ٢١٣

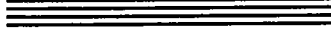
رقم الإيداع : ١٥/١٦٣٨

ردمك : ١-٩-٧٩١-٩٦٠

الطبعة الثالثة



محمد بن حسن بن عقيل موسى



الهمة طريق
إلى القمة

حقوق الطبع محفوظة

١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م

الناشر
دار الأندلس الخضراء
للنشر والتوزيع
جدة

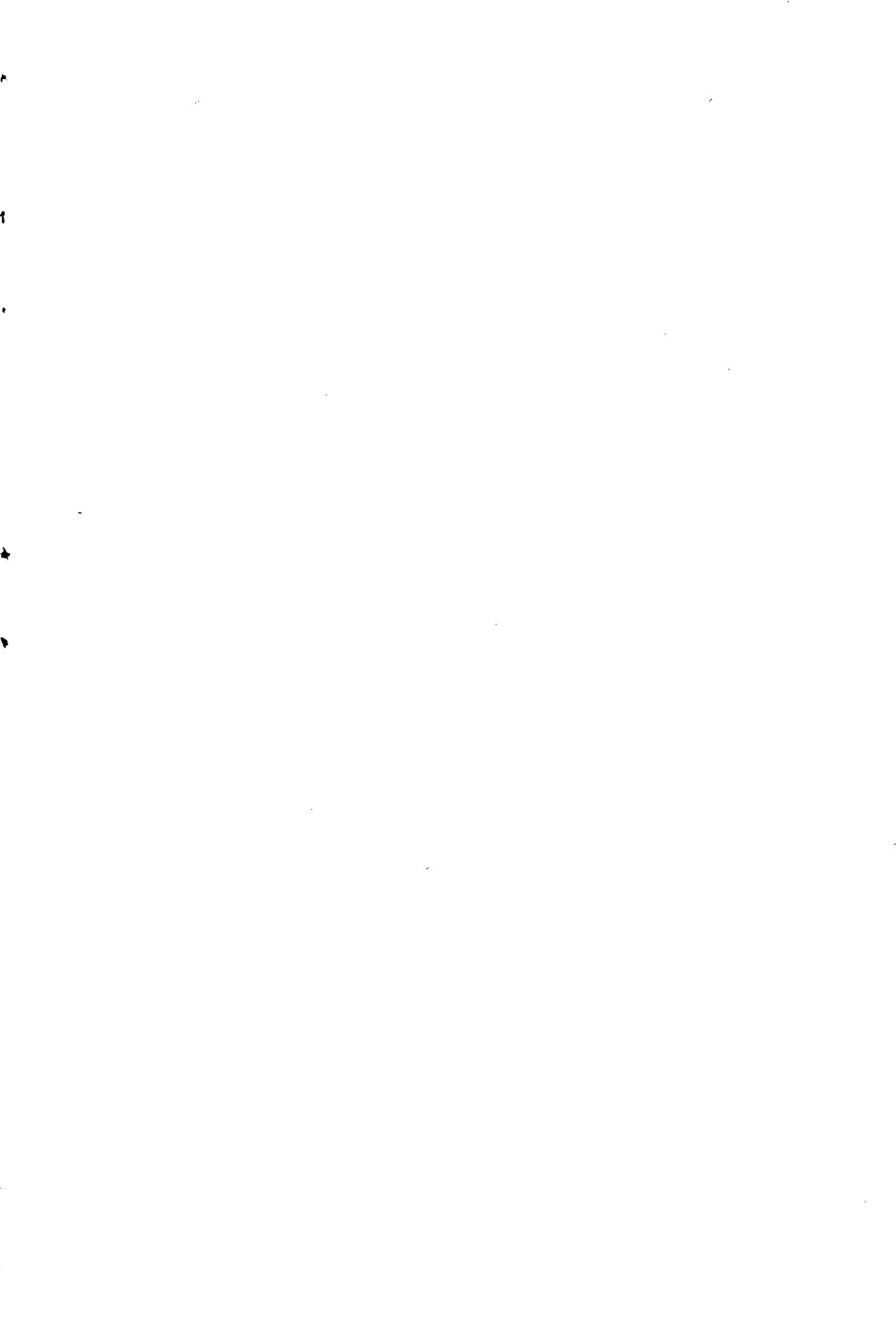
ص. ب. (٤٢٣٤٠) جدة (٢١٥٤١)
المكتبة - حي السلامة - هاتف ٦٨٢٥٢٠

إذا هبت رياحك فاغتنمها
وإن ولدت نياقك فاحتلبها
فإن الخافقات لها سكونُ
فلا تدري الفصيل لمن يكونُ

قال حكيم من الحكماء :

« لما كنت حدثاً كنت أتصور أن الرعد هو الذي يقتل الناس
فلما كبرت علمت أن البرق هو الذي يقتل ، ولهذا عزمت من ذلك
الحين على أن أقل من الإرعاد وأكثر من :

الإبـراق »



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الطبعة الثالثة

الحمد لله رب العالمين ، وصلاةً وسلاماً تامين كاملين عطين
على سيد الأنبياء والمرسلين ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، وبعد .
فهذه الطبعة الثالثة - ولله الحمد - من كتاب « الهمة » ، وقد
تميزت عن الطبعتين السابقتين بزيادات كثيرة متنوعة أهمها في
نظري ما أورده عن حال الغربيين في بداية القرن التاسع عشر وما
بعده وذلك إبان ثورتهم الصناعية الكبرى ، وما كان بعضهم عليه
من همة عالية ، ولم أقصد بذلك تمجيدهم - حاشا وكلا - ولكنني
قصدت إظهار أنه من سنة الله في الكون أنه يكافيء المجد المجتهد
العامل الساعي في الدنيا ويُنيله مراده مسلماً كان أم كافراً ، أما
الآخرة فلا يكافيء بها إلا من كان قد اجتهد لوجهه الكريم .

ولما كان بعض أهل الغرب قد بذل وعرق ونصب وتعب في
سبيل رفعة قومه فقد أحببت أن أورد بعضاً من تلك الأخبار

والأقوال حتى تكون حافظاً - هي وما سبق أن سقته - لبني ديني لأن ينفضوا غبار الذل والضعة عنهم حتي يبنزغ لهم - بإذن الله تعالى - فجرٌ جديد .

هذا ، ووصيتي لكل من يقرأ هذا الكتاب أن يأخذ نفسه بإرشاداته ، ويعمل ما في وسعه ليتشبه بهمة وجد وعزيمة أولئك الرجال الذين ذكرت أخبارهم وأحوالهم ، فإنه إن صنع ذلك يُرجى له الفلاح والسعادة ، وتمام الأمر والسيادة ، والله المستعان .

ثم إن أهل الهمة العالية منهم لم يفوقوا في ذلك أسلافنا بل هم قد سبقوهم سبقاً عظيماً ، ولكن لما اقتربت حوادثهم من عصرنا ، وحققوا بهمهم تلك ما نراه من مخترعات وتقنيات ساغ لي أن أورد بعض أخبارهم على أنها من جملة ما يحسن بنا اتباعه والأخذ به من الحكم وتجارب الأمم ، والله أعلم .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الطبعة الأولى

الحمد لله رب العالمين ، الذي خلق الخلق واصطفى منهم المؤمنين ، ودلهم على ما فيه سعادتهم بقوله : ﴿ خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون ﴾ ، والصلاة والسلام على خير خلق الله أجمعين ، سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، الذين أضأوا بهمتهم العالمين .

أما بعد :

خلق الله - سبحانه وتعالى - الخلق وقدر فهدى ، فكان من تقديره - تعالى - أن قَسَمَ لهم حظوظهم من الدين والعقل والغنى والجمال ، وكان بما قسمه الله - سبحانه - وقدره على كل إنسان - أيضاً - حظُّه من الهمة والإرادة .

والبشر يتفاوتون تفاوتاً عظيماً في هذا الأمر ، فمنهم من تعلق

به همته حتى يكاد يبلغ حدود الكمال ، ومنهم من تسفل به همته حتى يصبح حاله أسوأ من الدواب وبين ذلك من المراتب ما لا يدخل تحت الحصر ، وما لا يعلمه إلا الله تعالى .

وإذا تقرر ذلك فاعلم أن أمر الهمّة عظيم وشأنها خطير ، يجدر بالإنسان المسلم أن يفهمه ويعتني به ويحدث به نفسه دائماً عسى أن يكون من أهل الهمّة العالية فيفوز فوزاً عظيماً .

وفي هذه الوريقات - التي أسأل الله تعالى أن يبارك فيها ويضع لها القبول - مباحثٌ لا تخلو من جدّة ، توضح معنى الهمّة وكيفية تحصيلها وتطويرها إلى غير ذلك من المعاني المهمة والمطالب التي تعلق بصاحبها إلى القمة .

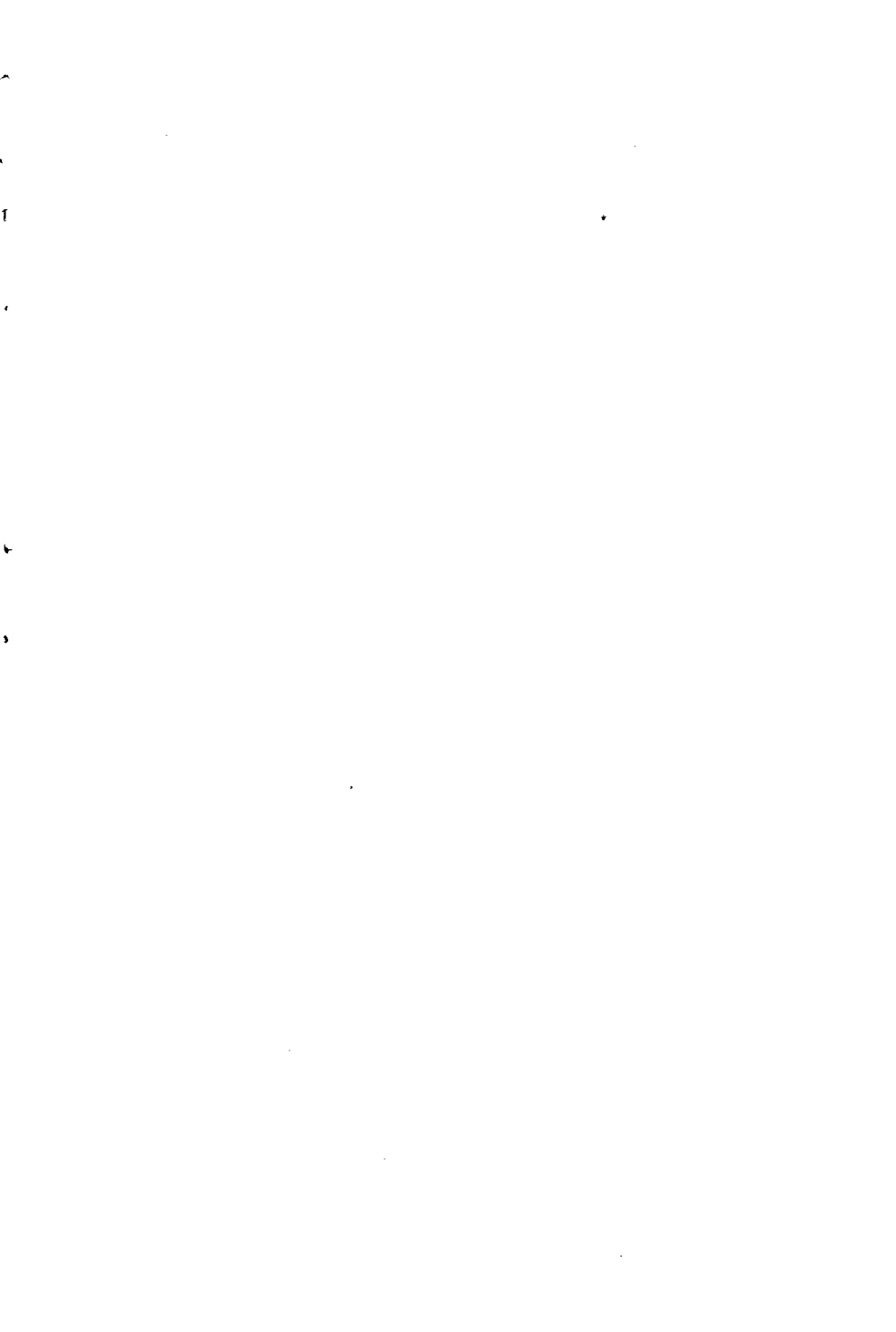
ولا يستصغرن إنسان شأن الهمّة فيسأل مستكراً : هل هذا الموضوع يستحق أن يفرد له بحثٌ ، وأن توضع له قواعد ومحاذير ؟ نعم والله الذي لا إله إلا هو ، إن للهمّة لشأناً عظيماً وتأثيراً كبيراً على حياة صاحبها سواء أكان في سن الشباب أم تعدّاه ، ممّن يطلب الدنيا أم من طلاب الآخرة فهي أساس حياة الإنسان ، والقطب الجاذب له إلى العزة أو الهوان .

ولا يُستغرب - أيضاً - إيراد هذا المبحث ويُقال إن الكتب التي دلّت على أهمية الوقت ودلّت على قيمته يستغنى بها عن

هذا المبحث ، إذ الوقت يستثمره حق الاستثمار من علت همته ،
وعرف كيف يستفيد بها ومنها ، وكتب الاستفادة من الوقت
ومعرفة قيمته أمر آخر غير مباحث الهمة كما سيرى القارىء ، إن
شاء الله تعالى .

وإن مما دعاني لتأليف هذا المبحث ندرة من تكلم فيه
وأوضحه ، ولم أر فيه مصنفاً مستقلاً ، ولا أزعم أنني أعطيته حقّه
ولكنني حاولت دخول هذا المضمار والتطفل على هذا الشأن ،
والله المسؤول بالإتمام وعليه التكلان .





معنى الهمة

جاء في القاموس (هم م) : (ما هُمَّ به من أمر يُفعل) ،
فالهمة هي الباعث على الفعل ، وتوصف بعلو أو سفول ، فمن
الناس من تكون همته عالية علو السماء ، ومنهم من تكون همته
قاصرة دنيئة سافلة تهبط به إلى أسوأ الدرجات .

وعرّف بعضهم علو الهمة فقال :

« هو استصغار ما دون النهاية من معالي الأمور »^(١) .

يقول ابن القيم رحمه الله تعالى ، واصفاً الهمة العالية :

« علو الهمة ألا تقف [أي النفس] دون الله ولا تتعوض عنه
بشيء سواه ، ولا ترضى بغيره بدلاً منه ، ولا تبغ حظها من الله
وقربه والأنس به والفرح والسرور والابتهاج به بشيء من الحظوظ
الخشيسة الفانية .

(١) « رسائل الإصلاح » : ٨٦/٢ .

فالهمة العالية على الهمم كالتائر العالي على الطيور لا يرضى بمساقطهم ولا تصل إليه الآفات التي تصل إليهم ، فإن الهمة كلما علت بعدت عن وصول الآفات إليها ، وكلما نزلت قصدها الآفات من كل مكان» (١) .

وقد حذر السلف كثيراً من سقوط الهمّة وقصورها ، فقد قال عمر الفاروق - رضي الله عنه :

« لا تُصَغِّرَنَّ هَمَّتَكَ فَإِنِّي لَمْ أَرِ أَعْعُدُّ بِالرَّجُلِ مِنْ سَقُوطِ هَمَّتِهِ » (٢) .

وقال ابن نباتة ، رحمه الله تعالى :

حَاوِلْ جَسِيْمَاتِ الْأُمُورِ وَلَا تَقْلُ

إِنِ الْمَحَامِدَ وَالْعُلَى أَرْزَاقُ

وارغب بنفسك أن تكون مقصراً

عن غاية فيها الطُّلابُ سِبَاقُ (٣) .

(١) « مدارج السالكين » : ٣ / ١٧١ .

(٢) « محاضرات الأدباء » : ١ / ٤٤٥ .

(٣) « المصدر السابق » .

وقد قيل :

« المرء حيث يجعل نفسه ، إن رفعها ارتفعت ، وإن قصر بها
اتّضعت » (١) .

وقال شاعرُ بني عامر :

إذا لم يكن للفتى همة تبوئه في العلامصعدا
ونفس يعودها المكرما ت ، والمرء يلزم ما عودا
ولم تعدُّ همته نفسه فليس ينال بها السؤددا (٢)
وقد ذم أعرابيُّ رجلاً فقال :

« هو عبد البدن حرُّ الثياب ، عظيم الرواق صغير الأخلاق ،
الدهر يرفعه وهمته تضعه » (٣) .

وقال أبو دلف :

وليس فراغ القلب مجداً ورفعة ولكن شغل القلب للهيم رافع
وذو المجد محمول على كل آلة وكل قصير الهيم في الحي وادع (٤)

(١) المصدر السابق .

(٢) المصدر السابق .

(٣) المصدر السابق : ٤٤٧ / ١ .

(٤) المصدر السابق .

والهمة قسمان : وهبية ، وكسبية :

فالوهبية هي ما وهبه الله تعالى للعبد من علو الهمة أو سفولها ، ويمكن أن تنمى وترعى أو تهمل وتترك ، فإن ثَمَّها صاحبها وعلا بها صارت كسبية ، أي أن صاحب الهمة كسب درجات عالية لهيمته وزاد من أصل مقدارها الذي وهبه الله تعالى إياه ، وإن تركها وأهملها ولم يلتفت إليها خبت وتضاءلت ، والهمة في هذا تشترك مع باقي الصفات العقلية والخلقية كالذكاء وقوة الذاكرة وحسن الخلق وغير ذلك مما هو معلوم بدهي .

قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى :

« وقد عرفت بالدليل أن الهمة مولودة مع آدمي ، وإنما تقصر بعض الهمم في بعض الأوقات فإذا حثت سارت ، ومتى رأيت في نفسك عجزاً فسَلِّ المنعم ، أو كسلاً فالجأ إلى الموقِّق ، فلن تنال خيراً إلا بطاعته ، ولا يفوتك خيرٌ إلا بمعصيته » (١).



(١) « لفتة الكبد إلى نصيحة الولد » : ٤٥ .

مراتب الهمم

الناس متفاوتون في أمرين

الأمر الأول : مطالبهم وأهدافهم .

والآخر : الهمم الموصلة إلى هذه المطالب والأهداف .

فمن الناس من يطلب المعالي بلسانه وليس له همّة في الوصول إليها فهذا متمنٌّ مغرور .

وما نيل المطالب بالتمني ولكن تؤخذ الدنيا غلابا

ومن أعظم المغالبات مغالبة النفس لتصبح ذا همّة عالية .

ومن الناس من لا يطلب إلا سفاسف الأمور ودنياها ، وهم

فريقان :

* فريق ذو همّة في تحصيل تلك الدنيا فتجده السباق إلى

أماكن اللهو ومغاني الغواني ، وهذا إن اهتدى يكن سباقاً إلى

المعالي ، ذا همة عالية نفيسة :

« خياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إن فقهوا »

* وفريق لا همة له فهو معدود من سقط المتاع وموته وحياته سواء ، لا يُفتقد إذا غاب ولا يُسأل إذا حضر .

إني رأيت من المكارم حسبكم أن تلبسوا خَزَّ الثياب وتشبعوا

فإذا تذوكرتِ المكارم مرةً في مجلس أنتم به فتقنعوا (١)

ومن الناس من تسمو مطالبه إلى ما يحبه الله ورسوله ﷺ وله همة عظيمة في تحصيل مطالبه وأهدافه فهنيئاً له .

وبين كل هذه الأقسام مراتب كثيرة متفاوتة .

يقول ابن القيم رحمه الله تعالى :

« لذة كل أحد على حسب قدره وهمته وشرف نفسه ، فأشرف

الناس نفساً وأعلامهم همةً وأرفعهم قدراً من لذتهم في معرفة الله ومحبته ، والشوق إلى لقائه ، والتودد إليه بما يحبه ويرضاه » (٢) .

ويقول ابن القيم أيضاً :

(١) « محاضرات الأدباء » : ٤٤٧/١ .

(٢) « الفوائد » : ١٩٦ - ١٩٧ .

« ولله الهمم ما أعجب شأنها وأشدّ تفاوتها ، فهمة متعلقة بالعرش ، وهمة حائمة حول الأنتان والحش » (١) ، (٢) .

يتفاوت الناس في هممهم فتفاوت على هذا أعمالهم وحظوظهم ودرجاتهم ، وإذا أردت أن تعرف مراتب الهمم فانظر إلى هممة ربيعة بن كعب الأسلمي رضي الله عنه وقد قال له رسول الله ﷺ :

« سَلْ » فقال : « أسألك مرافقتك في الجنة » (٣) .

وكان بعض الناس يسأله ما يملأ بطنه أو يوارى جلده .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال :

« ألا تسألني من هذه الغنائم التي يسألني أصحابك ؟ »

قلت : أسألك أن تعلمني مما علمك الله ، فنزع نمرة كانت على ظهري فبسطها بيني وبينه حتى كأني أنظر إلى النمل يدب عليها فحدثني ، حتى إذا استوعبت حديثه قال :

« اجمعها فصرها إليك ، فأصبحت لا أسقط حرفاً مما حدثني » (٤)

(١) بيت الخلاء .

(٢) « مدارج السالكين » : ١٤٧ / ٣ .

(٣) أخرجه الإمام مسلم في كتاب الصلاة ، باب فضل السجود والحث عليه .

(٤) أخرجه أبو نعيم في « الحلية » : ٣٨١ / ١ .

فاكتسب - رضى الله عنه - بهمته في الطلب - مجداً عظيماً ، وهو أنه حفظ للناس أحاديث رسولهم ﷺ ، فأصبح حافظ الصحابة بلا منازع ، بل أصبح راوية الإسلام .

وقال الشيخ عبد القادر الجيلاني لغلامه :

« يا غلام : لا يكن همك ما تأكل وما تشرب وما تلبس وما تنكح وما تسكن وما تجمع ، كل هذا : هم النفس والطبع فأين هم القلب ، همك ما أهمك فليكن همك ربك عز وجل وما عنده »^(١)

وهذه - والله - من أعظم الوصايا للدعاة حتى لا تضعف همتهم أمام المغريات ؛ لا سيما وأن من أهم صفات الداعية مخالطته للناس والتأثير عليهم ، فكم من داعية انزلت في بحر هذه المغريات حتى أضحت الدعوة آخر اهتماماته .

ليس المرءة أن تبيت مُنعماً وتظل معتكفاً على الأقداح

ما للرجال والتنعم إنما خلقوا اليوم كربة وكفاح^(٢)

وأما أمر ابن عباس - رضى الله عنه - مع صاحبه الأنصاري فهو دليل على تفاوت الهمم واختلاف مراتبها فقد قال - رضى الله عنه :

(١) إحياء فقه الدعوة ، الراشد ، مجلة المجتمع : ١٣٦ .

(٢) « محاضرات الأدباء » : ٤٨٨ / ١ .

« لما قبض رسول الله ﷺ قلت لرجل : هلم فلنتعلم من أصحاب النبي ﷺ فإنهم كثير . فقال : العجب والله لك يا ابن عباس أترى الناس يحتاجون إليك وفي الناس من ترى من أصحاب رسول الله ﷺ فركبت ذلك وأقبلت على المسألة وتتبع أصحاب رسول الله ﷺ ، فإن كنت لآتي الرجل في الحديث يبلغني أنه سمعه من رسول الله ﷺ فأجده قائلاً فأتوسد ردائي على باب داره تسفي الرياح على وجهي حتى يخرج إليّ فإذا رأيته قال : يا ابن عم رسول الله ﷺ ، مالك ؟ قلت : حديث بلغني أنك تحدّثه عن رسول الله ﷺ فأحببت أن أسمعه منك فيقول : هلا أرسلت إليّ فأتيك ؟ فأقول : أنا كنت أحق أن آتيك . وكان ذلك الرجل يراني . فذهب أصحاب رسول الله ﷺ وقد احتاج الناس إليّ فيقول : أنت أعلم مني » (١) .

وترى اليوم من تفاوت الهمم أمراً عجيباً ، فإذا استثنى الناظر في أحوال الناس أمر العامة - واستثناؤهم واجب لأنه قد ماتت هممهم وقعدت بهم عن تحصيل معالي الأمور - واطلع على أحوال الخاصة وهم : الدعاة وطلاب العلم وباقي الملتزمين الحريصين على دينهم سيصاب بالدهشة لما يراه من فتور الهممة وأنها

(١) قال في «مجمع الزوائد» ٩/ ٢٨٠ : رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح .

الشأن الغالب على الخصوص الذين ذكرتهم ؛ فمنهم من إذا اطلع ساعة أو ساعتين في اليوم ظن أنه قد أتى بما لم تأت به الأوائل ، ومنهم من إذا خرج لزيارة فلان من الناس بقصد الدعوة يظن أنه قد قضى ما عليه من حقّ يوميّ ، ومنهم من تتغلب عليه زوجته وعياله فيقطع عامة وقته في مرضاتهم ، ومنهم من اقتصر في تحصيل العلم على سماع بعض الأشرطة وحضور محاضرة أو اثنتين في الأسبوع أو الشهر ، ومنهم من غلب عليه الركون إلى الدنيا والتمتع بمباحاتها تمتعاً يفُضي به إلى نسيان المعاني العلية ، ومنهم من يقضي عامة يومه متتبعاً لسقطات إخوانه ومطلعاً على ما يزيد علمه رسوخاً في هذا المجال .

وهكذا يندر أن تجد إنساناً استطاع أن يعلو بهمته ويجمع شمله ويقصّر من الاعتذارات والشكايات فتصبح حياته مثلاً أعلى يُحتذى به .

ولا أزعم أن جمهور الصحوة قد فات عليه هذا الأمر - أي أمر الهمة وعلوها - ولكن أقول جازماً بأنهم - إلا القليل - لم يستثمروا همهم حق الاستثمار ، ولم يحاولوا أن يرتقوا بأنفسهم حق الارتقاء .

يقول الأستاذ المودودي ، رحمه الله تعالى ، مخاطباً قوماً ممن ذكرناهم آنفاً :

« إنه من الواجب أن تكون في قلوبكم نار متّقدة تكون في ضرامها - على الأقل - مثل النار التي تنقد في قلب أحدكم عندما يجد ابناً له مريضاً ولا تدعه حتى تجرّه إلى الطبيب ، أو عندما لا يجد في بيته شيئاً يسد به رمق حياة أولاده فتقلقه وتضطره إلى بذل الجهد والسعي .

إنه من الواجب أن تكون في صدوركم عاطفة صادقة تشغلكم في كل حين من أحيانكم بالسعي في سبيل غايتكم وتُعمّر قلوبكم بالطمأنينة وتكسب لعقولكم الإخلاص والتجرد وتستقطب عليها جهودكم وأفكاركم بحيث إن شؤونكم الشخصية وقضاياكم العائلية إذا استرعت انتباهكم فلا تلتفتون إليها إلا مكرهين ، وعليكم بالسعي ألا تنفقوا لمصالحكم وشؤونكم الشخصية إلا أقل ما يمكن من أوقاتكم وجهودكم فتكون معظمها منصرفه لما اتخذتم لأنفسكم من الغاية في الحياة ، وهذه العاطفة ما لم تكن راسخة في أذهانكم ، ملتحمة مع أرواحكم ودمائكم ، آخذةً عليكم ألبابكم وأفكاركم فإنكم لا تقدرّون أن تحركوا ساكناً بمجرد أقوالكم .

الحقيقة أن الإنسان إذا كان قلبه مربوطاً بغايته وفكره متطلعاً إليها فإنه لا يحتاج إلى تحريض أو دفع . . . واسمحوا لي أن أقول لكم إنكم إذا خطوتم على طريق هذه الدعوة بعاطفة أبرد من تلك

العاطفة القلبية التي تجدونها في قلوبكم نحو أزواجكم وأبنائكم وأمهاتكم فإنكم لا بد أن تبوؤوا بالفشل الذريع»^(١).

أرأيتم همة الإمام رحمه الله ، ولا غرو أن تخرج هذه اللائىء من رجل تصدى طيلة حياته المباركة لهموم دعوة الخلق إلى الحق ، حتى أنه كان يصدر دورية بنفسه لا يشاركه فيها أحد - وكان هذا في مستقبل حياته - فهو الناشر ومدير التحرير والموزع ، وقد أخبر عن نفسه بأنه كان يبيل الخبز اليابس في النهر ثم يأكله ، وحياته تصلح أن تكون تطبيقاً لما أوردته عنه أنفاً ، رحمه الله .

ويمكن بعد هذا أن نقول : إن مراتب الهمم متفاوتة فيما يلي :

١ - همة لا تعسف صاحبها لقضاء حوائجه الأساسية بل يظل عامة ليله وسحابة نهاره في نوم وتراخ وكسل ، وهذه أدنى درجات الهمم ، والعياذ بالله ، وصاحبها عاجز قاصر يعتمد على الناس اعتماداً كلياً ، وهذه المرتبة قليلة في النوع الإنساني ، ولله الحمد ، ومن أمثلتها في الناس الطفيليون وطبقة التناقلة المشتهرين في التاريخ بكسلهم وسقوط هممهم .

٢ - ومن الهمم همة ترقى بصاحبها إلى قضاء الحوائج والسعي في

(١) «تذكرة دعاء الإسلام» : ٥٨ .

الأرض وأداء الفروض ولكن كل هذا يقضيه بقدر بحيث يستصعب معه كثيراً من الأمور ويعتقد استحالتها وهي أمور ممكنة التحقق عند غيره ، وتجده - عند الاستشارة - كثير الصدّ قريب القصد .

وهذه المرتبة من الهمة يشترك فيها كثير من الناس إن لم نقل أغلبهم .

٣ - ومن الناس من يريد الارتفاع بهمته ولكنه لا يعرف سبل استثمارها ولا كيفية الاستفادة التامة منها فتجده متذبذباً في أموره فتارة ينجز أموراً عظيمة وتارة يستصعب الممكن ويستبعده ، والغالب على أهل هذه المرتبة أنهم لا يحققون ما يصبون له ويتطلعون إليه .

٤ - ومن الناس من تتجاوز به همته واقع الناس بكثير وتتعداه بل تكاد تستسهل المستحيل ولا تخضع له ، وصاحب هذه الهمة نادر في دنيا البشر ولكنه موجود معروف يعرفه الناس ويقتدون به ، والغالب على صاحب هذه الهمة أنه يحقق أهدافه وغاياته بل يحقق أموراً تحتاج في تصور معظم الناس إلى فريق من العاملين لإنجازها .

قال أبو الطيب المتنبّي رحمه الله تعالى :

له همم لا منتهى لكبارها

وهمته الصغرى أجلّ من الدهر

وقال أبو الطيب أيضاً :

على قدر أهل العزم تأتي العزائم

وتأتي على قدر الكرام المكارم

وتعظم في عين الصغير صغارها

وتصغر في عين العظيم العظائم

وقال أيضاً :

تجمعت في فؤاده همم

ملء فؤاد الزمان إحداها

وقال آخر :

صدرٌ رحيبٌ لما يأتي الزمان به

وهمة تسع الدنيا وما تسعُ

وقال أبو فراس :

تهون علينا في المعالي نفوسنا

ومن يخطب الحسنة لم يُغله المهر^(١)

(١) النصوص الشعرية السابقة من «محاضرات الأدباء» : ١ / ٤٤٥-٤٤٧ .

أهمية علو الهمة في حياة الإنسان المسلم

يقول مشاد الدينوي:

« همتك فاحفظها ؛ فإن الهمة مقدمة الأشياء فمن صلحت له همته وصدق فيها صلح له ما وراء ذلك من الأعمال » (١).

ويقول ابن القيم رحمه الله :

« لا بد للسالك من همّة تسيّره وترقيه ، وعلم يبصره ويهديه » (٢).

وقال الشيخ أحمد بن إبراهيم الدرعي :

« كن رجلاً رجله في الثرى وهمه في الثريا ، وما افتقرت الناس إلا في الهمم ، من علت همته علت رتبته ، ولا يكون أحدٌ إلا فيما رضيت له همته » (٣).

وقد أسلفتُ بأنها عمود أمر الإنسان والأمر المهم في دنياه ، ولكن سأفصل ما أجملت بما يلي :

(١) « إحياء فقه الدعوة » للأستاذ الراشد ، مجلة المجتمع : ١٣٦ .

(٢) « الدرر الكامنة » : ٢١ / ٤ .

(٣) « نشر المثاني » : ٢٢ / ٢ .

أولاً : تحقيق كثير من الأمور مما يعده عامة الناس خيالاً لا يتحقق :
وهذا الأمر مشاهد معروف عند أهل الهمم ؛ إذ يستطيعون بتوفيق الله لهم أولاً وبهمتهم ثانياً إنجاز كثير من الأعمال التي يستعظم بعضها من قعدت به همته ويظنها خيالاً ، وأعظم مثال على هذا سيرة المصطفى - صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم - إذ المعروف عند أهل التواريخ أن بناء الأمم يحتاج إلى أجيال لتحقيقه ، لكنه ﷺ استطاع بناء خير أمة أخرجت للناس في أقل من ربع قرن ، واستطاعت هذه الأمة أن تنير بالإسلام غالب الأجزاء المعروفة آنذاك ، وجهاده ﷺ وعمله وهمته العالية في بناء الأمة أمرٌ معروف وهو مما تقاصر عنه أطماع أهل الهمة العالية وخيالاتهم وما يتطلعون إليه .

والصديق رضي الله عنه استطاع - في أقل من سنتين - أن يخرج من دائرة حصار المرتدين ، ولم يمت إلا وجيوشه تحاصر أعظم امبراطوريتين في ذلك الوقت ، هذا وقد نهاه كبار الصحابة عن حرب المرتدين وظنوا أنه لا يستطيع أن يقوم في وجه العرب كلهم ، ولكن همته العالية أبت عليه ذلك واستطاع أن ينجز ما ظنه الناس خيالاً لا ينجز .

وقس على هذا أمر الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه حتى أنه من عظمة همته في طلب الحق قال له علي رضي الله عنه : « لقد أذلت الخلفاء من بعدك يا أمير المؤمنين » ^(١) .

(١) تاريخ عمر بن الخطاب ، ابن الجوزي .

ويصلح أن يكون أمر الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز مثالا يستضاء به لطالب الهمة العالية ؛ إذ أنه حاول إرجاع الناس إلى ما كان عليه الصدر الأول ولقد حقق كثيراً من النجاح ، رحمه الله .

وهناك أمثلة كثيرة ماثورة في التواريخ ، ولكن لنقترب قليلاً من عصرنا ونحلق قريباً من ديارنا ولنضرب مثلين على علو الهمة لا أكاد أجد لهما - فيما أعلم - نظيراً :

أما أحدهما فشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله الذي استطاع في مدة وجيزة إخراج مجتمعه من ظلمات الشرك إلى نور التوحيد بهمة وعزيمة نادرتين ، وأما الآخر فالإمام حسن البنا رحمه الله ؛ إذ كانت حياته مثلاً جميلاً لعلو الهمة ومن أراد الإنصاف فليراجع « مذكرات الدعوة والداعية » ، و « رسائله » التي تفوح بعلو الهمة وقوة الإرادة ، كيف لا يكون ذلك وقد كان يخاطب أتباعه بقوله : « أحلام الأمس حقائق اليوم ، وأحلام اليوم حقائق الغد » .

وأضرب مثلاً بهمة أحد الكافرين حتى نعتبر ونتعظ ، فنحن أولى منه بعلو الهمة وقوة الإرادة ، وهذه القصة حكاها الدكتور توفيق الواعي حيث قال حفظه الله :

« أرسلت الدولة اليابانية في بدء حضارتها بعوثاً دراسية إلى ألمانيا كما بعثت الأمة العربية بعوثاً ، ورجعت بعوث اليابان لتحضر أمتها ، ورجعت بعوثنا خاوية الوفاض !! فما هو السر؟ لنقرأ هذه القصة حتى نتعرف على الإجابة .

يقول الطالب الياباني « أوساهير » الذي بعثته حكومته للدراسة في ألمانيا : لو أنني اتبعت نصائح أستاذي الألماني الذي ذهبت لأدرس عليه في جامعة هامبورج لما وصلت إلى شيء ، كانت حكومتي قد أرسلتني لأدرس أصول الميكانيكا العلمية ، كنت أحلم بأن أتعلم ، كيف أصنع محركاً صغيراً؟ كنت أعرف أن لكل صناعة وحدة أساسية أو ما يسمى « موديل » هو أساس الصناعة كلها ، فإذا عرفت كيف تصنع وضعت يدك على سر هذه الصناعة كلها ، وبدلاً من أن يأخذني الأساتذة إلى معمل ، أو مركز تدريب عملي ، أخذوا يعطونني كتباً لأقرأها ، وقرأت حتى عرفت نظريات الميكانيكا كلها ، ولكنني ظللت أمام المحرك ، أيا كانت قوته وكأني أفق أمام لغز لا يحل ، وفي ذات يوم ، قرأت عن معرض محركات إيطالية الصنع ، كان ذلك أول الشهر ، وكان معي راتبي ، وجدت في المعرض محركاً قوة حصانين ثمنه يعادل مرتبي كله ، فأخرجت الراتب ودفعته ، وحملت المحرك وكان ثقيلاً جداً وذهبت إلى حجرتي ، ووضعتة على المنضدة

وجعلت أنظر إليه ، كأنني أنظر إلى تاج من الجواهر ، وقلت
لنفسي : هذا هو سر قوة أوروبا ، لو استطعت أن أصنع محركاً
كهذا غيرت تاريخ اليابان ، وطاف بذهني خاطر يقول : إن هذا
المحرك يتألف من قطع ذات أشكال وطبائع شتى ، مغناطيس
كحذوة الحصان ، وأسلاك ، وأذرع دافعة ، وعجلات ، وتروس
وما إلى ذلك ، لو أنني استطعت أن أفكك قطع هذا المحرك وأعيد
تركيبها بالطريقة نفسها التي ركبوها بها ، ثم شغلته فاشتغل ، أكون
قد خطوت خطوة نحو سر « موديل » الصناعة الأوربية ، وبحثت
في رفوف الكتب التي عندي ، حتى عثرت على الرسوم الخاصة
بالمحركات وأخذت ورقاً كثيراً ، وأتيت بصندوق أدوات العمل ،
ومضيت أعمل ، رسمت المحرك ، بعد أن رفعت الغطاء الذي
يحمل أجزائه ، ثم جعلت أفككه ، قطعة قطعة ، وكلما فككت
قطعة رسمتها على الورقة بغاية الدقة ، وأعطيتها رقماً ، وشيئاً
فشيئاً فككته كله ، ثم أعدت تركيبه ، وشغلته فاشتغل ، كاد قلبي
يقف من الفرح ، استغرقت العملية ثلاثة أيام ، كنت آكل في اليوم
وجبة واحدة ، ولا أصيب من النوم إلا ما يمكنني من مواصلة
العمل .

وحملت النبأ إلى رئيس بعثتنا فقال : حسناً ما فعلت ، الآن لا
بد أن أختبرك ، سأتيك بمحرك متعطل ، وعليك أن تفككه ،

وتكشف موضع الخطأ وتصححه ، وتجعل هذ المحرك العاطل يعمل وكلفتني هذه العملية عشرة أيام عرفت أثناءها مواضع الخلل ، فقد كانت ثلاثاً من قطع المحرك بالية متآكلة ، صنعت غيرها بيدي ، صنعتها بالمطرقة والمبرد .

بعد ذلك قال رئيس البعثة . . وكان بمشابة الكاهن يتولي قيادتي روحياً . . قال : عليك الآن أن تصنع القطع بنفسك ، ثم تركيبها محركاً ، ولكي أستطيع أن أفعل ذلك التحقت بمصانع صهر الحديد ، وصهر النحاس ، والألومنيوم ، بدلاً من أن أعد رسالة الدكتوراة كما أراد مني أساتذتي الألمان ، تحولت إلى عامل ألبس بذلة زرقاء وأقف صاغراً إلى جانب عامل صهر المعادن ، كنت أطيع أوامره كأنه سيد عظيم ، حتى كنت أخدمه وقت الأكل ، مع أنني من أسرة ساموراي ، ولكنني كنت أخدم اليابان وفي سبيل اليابان يهون كل شيء . قضيت في هذه الدراسات والتدريبات ثماني سنوات ، كنت أعمل خلالها ما بين عشر وخمس عشرة ساعة في اليوم ، وبعد انتهاء يوم العمل كنت أخذ نوبة حراسة ، وخلال الليل كنت أراجع قواعد كل صناعة على الطبيعة .

وعلم « الميكادو » - الحاكم الياباني - بأمرني فأرسل لي من ماله الخاص ، خمسة آلاف جنيه إنجليزي ذهب اشترت بها أدوات مصنع محركات كاملة ، وأدوات وآلات ، وعندما أردت شحنها إلي اليابان كانت النقود قد فرغت ، فوضعت راتبي وكل ما ادخرته ، وعندما وصلت إلى « نجازاكي » قيل لي : إن « الميكادو » يريد أن يراني ، قلت : لن أستحق مقابلته إلا بعد أن أنشئ مصنع محركات كاملاً ، استغرق ذلك ٩ سنوات ، وفي يوم من الأيام حملت مع مساعدي عشرة محركات (صنع في اليابان) ، قطعة قطعة ، حملناها إلى القصر ، ودخل « الميكادو » وانحنينا نحبيه وابتسم وقال : هذه أعذب موسيقى سمعتها في حياتي ، صوت محركات يابانية خالصة ، هكذا ملكنا « الموديل » وهو سر قوة الغرب ، نقلناه إلى اليابان ، نقلنا قوة أوروبا إلى اليابان ونقلنا اليابان إلى الغرب (١).

ثانياً : الوصول إلى مراتب عليا في العبادة والزهد :

وهذا معلّم بارز في حياة النبي ﷺ والصحابة ومن تبعهم بإحسان ، يقول حذيفة رضي الله عنه :

« صليت مع النبي ﷺ ذات ليلة فافتتح البقرة فقلت يركع عند

المائة ثم مضى فقلت : يصلي بها في ركعة فمضى فقلت : يركع بها ، ثم افتتح النساء فقرأها ثم افتتح آل عمران فقرأها ، يقرأ مترسلاً إذا مرّ بآية فيها تسبيح سبح وإذا مرّ بسؤال سأل ، وإذا مرّ بتعوذ تعوذ ثم ركع فجعل يقول : سبحان ربي العظيم فكان ركوعه نحواً من قيامه ، ثم قال : سمع الله لمن حمده ثم قام طويلاً قريباً مما ركع ثم سجد فقال : سبحان ربي الأعلى فكان سجوده قريباً من قيامه « (١) .

وقال ابن مسعود رضي الله عنه :

« صليت مع رسول الله ﷺ فأطال حتى هممت بأمر سوء ، قيل : وما هممت به ؟ قال : هممت أن أجلس وأدعه » (٢) .

وهذا معاذ بن جبل رضي الله عنه على فراش الموت يذكر أموراً تدل على علو همته في العبادة والزهد فروي عنه أنه قال :

« اللهم إنك تعلم أنني لم أكن أحب البقاء في الدنيا ولا طول المكث فيها لجري الأنهار ولا لغرس الأشجار ولكن كنت أحب البقاء لمكابدة الليل الطويل ، وظماً الهواجر في الحر الشديد ، ولمزاحمة العلماء بالركب في حلق الذكر » (٣) .

(١ ، ٢) أخرجهما الإمام مسلم رحمه الله في كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، باب صلاة النبي ﷺ ودعاؤه بالليل .

(٣) « حلية الأولياء » : ١ / ٢٣٩ .

هذا وقد كان يعيش في دمشق ولكنه علا بهمته عما فيها من مغريات وجمال .

وهذا الإمام مالك بن أنس ، رحمه الله ، إمام دار الهجرة قد روى عنه الإمام ابن القاسم هذه الحادثة :

« كنت آتي مالكا غلساً^(١) فأسأله عن مسألتين ، ثلاثة ، أربعة ، وكنت أجد منه انشراح الصدر ، فكنت آتي كل سحر ، فتوسدت مرة في عتبه فغلبتني عيني فنمت وخرج مالك إلى المسجد فلم أشعر به ، فركضتني سوداء له برجلها وقالت لي : إن مولاك لا يغفل كما تغفل أنت ، اليوم له تسع وأربعون سنة ما صلى الصبح إلا بوضوء العتمة^(٢) . ظنت السوداء أنه مولاه من كثرة اختلافه إليه »^(٣) .

وإذا أردت التوسع في أمثلة عبادة السلف وزهدهم فسيطول بي الأمر وحسبي ما أورده دليلاً على علو هممهم .

(١) انظر إلى هذه الهمة العالية إذ يأتيه قبل الفجر ، وفي أيامنا قلّ من يجلس مستيقظاً بعد صلاة الفجر إلى أن يصلي ركعتين بعد ارتفاع الشمس قدر رمح ، وإذا طلب من أحد الدرس بعد الفجر يعتذر بأنه موعده غير مناسب ، وهذا في أيام الإجازات التي ليس فيها عمل صباحي مبكر يحتاج إلى راحة .

(٢) أي العشاء .

(٣) « ترتيب المدارك » : ٣ / ٢٥٠ .

ثالثاً : البعد عن سفاسف الأمور ودناياها :

صاحب الهمة العالية لا يرضى لنفسه دنايا الأمور بل يطمح دائماً إلى ما هو أفضل وأحسن فتجده يترفع عن مجالس اللغو وإضاعة الوقت ، وينأى بنفسه عنها .

يقول الإمام ابن الجوزي متألماً من حال من يقطع يومه وليلته في سفاسف الأمور :

« قد رأيت عموم الخلائق يدفعون الزمان دفعاً عجيباً، إن طال الليل فبحديث لا ينفع أو بقراءة كتاب فيه غزل وسمر ، وإن طال النهار فبالنوم ، وهم في أطراف النهار على دجلة أو في الأسواق ، فشبهتهم بالمتحدثين في سفينة وهي تجري وما عندهم خبر ، ورأيت النادرين قد فهموا معنى الزمان وتهياً والرحيل ، فالله الله في مواسم العمر ، والبدارَ البدارَ قبل الفوات ، ونافسوا الزمان »^(١) .

ولما فرَّ عبد الرحمن الداخل - صقر قريش - من العباسيين وتوجه تلقاء الأندلس أهديت إليه جارية جميلة فنظر إليها وقال :

« إن هذه من القلب والعين بمكان ، وإن أنا اشتغلت عنها بهمتي فيما أطلبه ظلمتها ، وإن اشتغلت بها عما أطلبه ظلمت

(١) « قيمة الزمن عند العلماء » : ٢٧ - ٢٨ .

همتي ، ولا حاجة لي بها الآن ، وردّها على صاحبها « (٢) .

ويروي الأستاذ عبد الستار نوير قصة طريفة فيها عبرة فيقول :

« قرأت للأستاذ أحمد أمين طريفة معبرة ، قال : « حدثت أن جندياً ظريفاً رأى في مقهى رجلين يلعبان النرد ، وكانت الساعة السابعة مساءً ، فتقدم إليهما بكل أدب واحترام وحيّاهما ثم سألهما :

- من أي وقت بدأتما اللعب ؟

- من الساعة الرابعة .

- وإلى متى ؟

- إلى الثامنة أو التاسعة .

- وما عملكما ؟

- مدرسان .

فانهال عليهما ضرباً ولكماً وقال : أما لكما عمل تعملانه ،

أو رياضة تقومون بها ، أو خدمة اجتماعية تؤديانها ؟

ذكر الأستاذ القصة ثم قال معلقاً : « ليت لنا مشرفين من هذا

القبيل يعزرون من أوضاع وقته على هذا النمط ، إذأ ما نجا من

الضرب واللكم إلا القليل» (١).

إن الإسلام - وهو الدين الشامل الخاتم - قد أبيع فيه الترويح والتنفيس ، ولكن أن يُخطأ في تقدير هذا الترويح فيُجعل هو الأصل فهذا من الدنيا التي تُنزّه عنها الأديان وترتفع عنها همة الإنسان .

رابعاً : صاحب الهمة العالية يعتمد عليه ، وتناط به الأمور الصعبة وتوكل إليه :

وهذا أمر مشاهد معروف ؛ فإن كل رؤساء ومدراء الجمعيات والمؤسسات يطمحون للعمل مع صاحب الهمة العالية ويطمئنون له ويسعدون به ، كيف لا وهو عوض عن فريق من العاملين ، وكذلك صاحب الهمة العالية في الدعوة يكون بمثابة فريق من الدعاة ، ويرفع الله به الدعوة درجات .

وقد قيل :

« ذو الهمة وإن حط نفسه تأبى إلا العلو ، كالشعلة من النار يخفيها صاحبها وتأبى إلا ارتفاعاً » (٢).

(١) « الوقت هو الحياة » : ١٧٨ .

(٢) « محاضرات الأدباء » : ٤٤٥ / ١ .

**خامساً : صاحب الهمة العالية يستفيد من حياته أعظم استفادة
وتكون أوقاته مستثمرة ببناءة :**

وهذا هو مطعم الصالحين ومراد العالمين ومجال المتنافسين ،
وقد كان السلف رحمهم الله يضربون أعظم الأمثلة في هذا
المجال ، وحسبي في هذا الأمر أن أورد مثالين :

أ - كان الإمام ابن عقيل الحنبلي يقول :

« إنني لا يحل لي أن أضيع ساعة من عمري ، حتى إذا تعطل
لساني عن مذاكرة ومناظرة ، وبصري عن مطالعة ، أعملت
فكري في حال راحتي وأنا مستطرح » (١) .

ب - ووصف الإمام النووي حياته لتلميذه أبي الحسن ابن
العطّار فذكر له أنه كان يقرأ كل يوم اثني عشر درساً على
مشايخه شرحاً وتصحيحاً : درسين في « الوسيط »
ودرساً في « المهذب » (٢) ، ودرساً في صحيح مسلم ،
ودرساً في « اللمع » (٣) لابن جنّي ، ودرساً في إصلاح
المنطق ، ودرساً في التصريف ، ودرساً في أصول الفقه ،

(١) « الوقت هو الحياة » : ١٧٨ .

(٢) « محاضرات الأدباء » : ١ / ٤٤٥ .

(٣) كتاب في النحو .

ودرساً في أسماء الرجال ، ودرساً في أصول الدين قال :
وكنت أعلق جميع ما يتعلق بها من شرح مشكل ووضوح
عبارة ، وضبط لغة ، وبارك الله تعالى في وقتي « (١) .

وقال أبو الحسن العطار :

« ذكر لي شيخنا ، رحمه الله تعالى ، أنه كان لا يُضِيع له وقتاً ،
لا في ليل ولا في نهار إلا في اشتغال حتى في الطرق وأنه دام على
هذا ستّ سنين ، ثم أخذ في التصنيف والإفادة والنصيحة وقول
الحقّ .

قلت (٢) : مع ما هو عليه من المجاهدة بنفسه ، والعمل
بدقائق الورع ، والمراقبة وتصفية النفس من الشوائب ومحققها
من أغراضها « (٣) .

قال د. ماردن :

« كل رجل ناجح لديه نوع من الشّبّاك يلتقط به نحّاتات
وقراضات الزمان ، ونعني بها فضلات الأيام والأجزاء الصغيرة من
الساعات مما يَكْنِسُه معظم الناس بين مهمّلات الحياة . وإنّ الرجل

(١) « تذكرة الحفاظ » : ١٤٧/٤ .

(٢) أي الذهبي .

(٣) « تذكرة الحفاظ » : ١٤٧/٤ .

الذي يذخر كل الدقائق المفردة وأنصاف الساعات والأعياد غير المنتظرة والفسحات التي بين وقت وآخر ، والفترات التي تنقضي في انتظار أشخاص يتأخرون عن مواعيد مضروبة لهم ويستعمل كل هذه الأوقات ويستفيد منها ليأتي بنتائج باهرة يدهش لها الذين لم يفطنوا لهذا السر العظيم الشأن» (١) .

سادساً : صاحب الهمة العالية قدوة للناس :

صاحب الهمة قدوة في مجتمعه ينظر إلى حاله القاعدون وأنصاف الكسالى والفاترون فيقتدون بهمته ، ويرون ما كانوا يظنونهم أمراً مسطوراً في الكتب القديمة قد انتهى وعُد من دنيا الناس يرونه واقعاً متحققاً في حياتهم فيظل هذا الشخص رمزاً للناس ومحل ضرب أمثالهم .

سابعاً : تغيير طريقة حياة الأفراد والشعوب :

يقول الشيخ الأستاذ محمد الخضر حسين شارحاً المراد :

« يسمو هذا الخلق بصاحبه فيتوجه به إلى النهايات من معالي الأمور ؛ فهو الذي ينهض بالضعيف يُضطهد أو يزدري فإذا هو عزيز كريم ، وهو الذي يرفع القوم من سقوط ويبدلهم بالخموم

(١) « سبيلك إلى الشهرة والنجاح » : ٥٦ .

نباهة وبالاضطهاد حرية ، وبالطاعة العمياء شجاعة أدبية .
 هذا الخلق هو الذي يحمي الجماعة من أن تتملق خصمها . .
 أما صغير الهمة فإنه يبصر بخصومه في قوة وسطوة فيذوب
 أمامهم رهبة ، ويطرق إليهم رأسه حطّة ثم لا يلبث أن يسير في
 ريحهم ويسابق إلى حيث تنحط أهواؤهم»^(١).



(١) «رسائل الاصلاح» : ٨٨/٢ .

وسائل ترقية الهمة

إذا عرفنا معنى الهمة ومراتبها وأهميتها فكيف السبيل لتنميتها والراقي بها؟

إن تطوير الإنسان لهتمته والراقي بها أمر مطلوب ويتأكد هذا المطلوب عند عقلاء الناس ومفكريهم ودعاتهم ومصالحهم ، وهذه جملة أمور تساعد - في ظني - على تطوير الهمم :

١ - المجاهدة ، فبدونها لا يتحقق شيء ولا تُخطى خطى ، قال تعالى : ﴿ والذين جهدوا فينا لنهدينهم سبيلنا ﴾ (١) .

قال ابن القيم رحمه الله تعالى : « أعرف من أصابه مرض من صداع وحمى وكان الكتاب عند رأسه فإذا وجد إفاقة قرأ فيه فإذا غلب وضعه فدخل عليه الطبيب يوماً وهو كذلك فقال : « إن هذا لا يحل لك فإنك تعين على نفسك وتكون سبباً لفوات مطلوبك » (٢) .

(١) العنكبوت [٦٩] .

(٢) « روضة المحبين » : ٧٠ .

فهذا - رغم مرضه - يجاهد ليقراً ويزداد علماً .

وقال الإمام عيسى بن موسى :

« مكثت ثلاثين سنة أشتهي أن أشارك العامة في
أكل هريسة السوق فلا أقدر على ذلك لأجل البكور إلى سماع
الحديث » (١) .

وقال الإمام عبد القادر الجيلاني رحمه الله تعالى :

« كنت أقتات بخرنوب الشوك وقمامة البقل وورق الخس
من جانب النهر والشط ، وبلغت الضائقة في غلاء نزل بغداد
إلى أن بقيت أياماً لم أكل فيها طعاماً بل كنت أتبع المنبوذات
أطعمها » (٢) .

وهذا جندي من الجنود يحدث عن مجاهدته في تعلم بعض
الفتون ، فيقول :

« تعلمت وأنا جندي بسيط بمرتب ستة بنسات في اليوم . . ولم
يكن لدي مال أشتري به مصباحاً أو زيتاً ، وكان من النادر في ليالي
الشتاء أن أحصل على نور ما عدا نور النار وذلك أثناء نوبتي في

(١) « ذيل طبقات الحنابلة » : ٢٩٨/١ .

(٢) « الدلائل النورانية لطالب الربانية » : ١٥٤-١٥٥ .

الخدمة فقط . وكنت أضطرّ أن أتخلى عن مُشترى قسم من القوات
الضروريّ لي لأشتري قلم رصاص أو ورقاً ولو بقيت متحملاً آلام
الجوع الشديد . ولم يكن لي دقيقة من الوقت أستقلُّ بها لنفسي
فكان عليّ أن أقرأ وأكتب بين حديث وقهقهة وغناء وجَلبة عدد لا
يقل عن عشرين جندياً ممن لا يفكرون بشيء

وكان مجموع ما يوفره كل منا بعد نفقاته بنسين في الأسبوع ،
وأذكر أنني احتلت مرة لتوفير نصف بنس بعد نفقاتي الضرورية
اليومية وصممت على أن أشتري به سمكة في الصباح وكان الجوع
قد بلغ مني مبلغه ولكنني لما خلعت ثيابي في الليل وجدت أن نصف
البنس قد ضاع فغطيت رأسي بملاءتي الحقيرة وجعلت أبكي
كالطفل .

ثم قال :

« إذا كنت في وسط هذه الأحوال الصعبة أتمكن من تحصيل العلم
فهل يبقى في العالم كله شاب يجد لنفسه عذراً في القعود عن
الدرس والتحصيل » (١) .

٢ - الدعاء الصادق والاتجاه إلى الله تعالى ، فهو المسؤول ، سبحانه ،
أن يقوي إرادتنا ويعلي هممتنا ويرفع درجاتنا .

(١) « سبيلك إلى الشهرة والنجاح » ٣٥ - ٣٦ .

٣ - اعتراف الشخص بقصور همته : وأنه لا بد له أن يطورها ويعلو بها أمر أولي نفسي لا مناص منه في هذا الباب ، ومن ثم لا بد أن يعتقد أنه قادر على أن يكون من أهل الهمة العالية ، فهذان الأمران - الاعتراف بقصور الهمّة ، واعتقاد إمكانية تطويرها - عاملان مهمان لا بد منهما في محاولة تطوير الهمة ، وبدونهما لا يكون الشخص قد خطا خطوات صحيحة .

٤ - قراءة سير سلف الأمة أهل الجد والاجتهاد والهمة العالية ، الذين صان الله - تعالى - بهم الدين ، فكم من إنسان قرأ سيرة صالح مجاهد فتغيرت حياته إثر ذلك تغيراً كلياً ، وصلاح أمره وحسن حاله .

يقول الإمام ابن الجوزي رحمه الله تعالى :

« أعوذ بالله من سير هؤلاء الذين نعاشرهم ، لا نرى فيهم ذا همة عالية فيقتدي بها المبتدئ ، ولا صاحب ورع فيستفيد منه المتزهّد^(١) ، فالله الله ، وعليكم بملاحظة سير القوم ، ومطالعة تصانيفهم وأخبارهم ، فالاستكثار من مطالعة كتبهم رؤية لهم . . . ولقد نظرت في ثبّت الكتب^(٢) الموقوفة في المدرسة

(١) يقول هذا عن أهل زمانه فماذا نقول عن أهل زماننا؟ إلى الله المشتكى .

(٢) أي فهرس الكتب .

النظامية فإذا به يحتوي على نحو ستة آلاف مجلد ، وفي ثبت كتب أبي حنيفة ، وكتب الحميدي ، وكتب شيخنا عبد الوهاب ، وابن ناصر ، وكتب أبي محمد الخشاب ، وكانت أحمالاً ، وغير ذلك من كل كتاب أقدر عليه ، ولو قلت إنني قد طالعت عشرين ألف مجلد كان أكثر ، وأنا بعد في الطلب^(١) .

فاستفدت بالنظر فيها من ملاحظة سير القوم وقدر همهم وحفظهم وعباداتهم وغرائب علومهم ما لا يعرفه من لم يطالع ، فصرت أستزري ما الناس فيه ، وأحتقر همم الطلاب ، ولله الحمد^(٢) .

وقال علي بن الحسن بن شقيق :

« قمت لأخرج مع ابن المبارك في ليلة باردة من المسجد ، فذاكرني عند الباب بحديث ، أو ذاكرته ، فما زلنا نتذاكر حتى جاء المؤذن للصبح^(٣) . »

وقال محمد بن علي السلمي :

« قمت ليلة سحراً لآخذ النوبة على ابن الأخرم ، فوجدت قد

(١) انظر إلى همة هذا الإمام القعاء ، رحمه الله .

(٢) « قيمة الزمن عند العلماء » : ٣١ .

(٣) « نزهة الفضلاء » : ٦٥٧/٢ .

سبقني ثلاثون قارئاً ، ولم تدركني النوبة إلى العصر « (١) .

وهذا الخبر كلما قرأته تعجبت من همة أولئك الأطهار ، جعلنا الله منهم .

٥ - مصاحبة صاحب الهمة العالية ، إذ كل قرين بالمقارن يقتدي ، والنظر في أحواله وما هو عليه ، وكيف يُختصر له الزمان اختصاراً .

وهذا من أعظم البواعث على علو الهمة ؛ لأن البشر قد جُبلوا على الغيرة والتنافس ومزاحمة بعضهم بعضاً ، وحب المجاراة في طبائع البشر أمر لا ينكر .

٦ - مراجعة جدول الأعمال اليومي ومراعاة الأولويات والأهم فالهم :

وهذا أمر مفيد في باب تطوير الهمة ، إذ كلما كان ذلك الجدول بعيداً عن الرتبة والملل كان أجدى في معالجة الهمة ومثال ذلك شخص اعتاد أن يزور أقاربه أو صحبه كل يوم ويقضي الساعات الطوال معهم بغير فائدة تذكر ، فمراجعة مثل هذا الشخص لجدول عمله تفيده أيما فائدة بحيث يقلل من تلك الزيارات لصالح أعمال أخرى تعود على همته بالفائدة .

٧ - التنافس والتنازع بين الشخص وهمة :

أعني بهذا أن على مرشد تطوير همته أن يضيف أعباء وأعمالاً يومية لنفسه لم تكن موجودة في برنامج حياته السابق ، بحيث يحدث نوع من التحدي داخل الإنسان لإنجاز ما تحمله من أعباء جديدة ، ويجب أن تكون هذه الإضافة مدروسة بعناية وإحكام حتى لا يصاب الشخص بالإحباط واليأس .

ويجب عليه كذلك أن يحسن اختيار هذه الأعمال والأعباء الجديدة بحيث تكون مبلغة له إلى الكمال « فمن كانت همته حفظ جميع كتب محمد بن الحسن [صاحب أبي حنيفة] فالظاهر أنه يحفظ أكثرها أو نصفها»^(١) فالتحدي الذي نشأ في نفسه بسبب رغبته في حفظ كتب معينة سيوصله إلى حفظ أكثرها ، والله أعلم .

٨ - الدأب في تحصيل الكمالات والتشوق إلى المعرفة :

فمن استوى عنده العلم والجهل ، أو كان قانعاً بحاله وما هو عليه فكيف تكون له همة أصلاً ، قال ابن حجر - رحمه الله - يصف حال الإمام جلال الدين البلقيني :

(١) «تعليم المتعلم» : ٦٠ .

« ما رأيت أحداً ممن لقيته أحرص على تحصيل الفائدة منه بحيث إنه كان إذا طرق سمعه شيء لم يكن يعرفه لا يقر ولا يهدأ ولا ينام حتى يقف عليه ويحفظه ، وهو على هذا مكب على الاشتغال ، محب في العلم حق المحبة » (١) .

ويقول الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز : « إن نفسي تواقة ، وإنها لم تُعط من الدنيا شيئاً إلا تآقت إلى ما هو أفضل منه ، فلما أعطيتُ ما لا أفضل منه في الدنيا تآقت إلى ما هو أفضل منه - يعني الجنة - » (٢) .

٩ - الابتعاد عن كل ما من شأنه الهبوط بالهمة وتضييعها :

كثير من الصالحين تضيع طاقاتهم في أمور لا تعود عليهم بالنفع بل قد يكون فيها كثير من الضرر ، فمن صور هذا التضييع :

أ - كثرة الزيارة للأقارب بدون هدف شرعيّ صحيح ولا غرض دنيوي فيه منفعة وفائدة معتبرة .

ب - كثرة الزيارة للأصحاب والإخوان بدعوى الأخوة والتناصح فيكثر في المجلس اللغو والمزاح وتقل الفائدة .

(١) « الضوء اللامع لأهل القرن التاسع » ١٠٩/٤ .

(٢) « عمر بن عبد العزيز خامس الخلفاء الراشدين » : ٣٤ .

يقول الإمام ابن الجوزي ، رحمه الله تعالى :

« أعوذ بالله من صحبة البطالين ، لقد رأيت خلقاً كثيراً يجرون معي فيما اعتاده الناس من كثرة الزيارة ويسمون ذلك التردد : خدمة ، ويطيّلون الجلوس ، ويجرون فيه أحاديث الناس وما لا يعني ويتخلله غيبة . وهذا شيء يفعله في زماننا كثير من الناس وربما طلبه المزور وتشوق إليه واستوحش الوحدة ، وخصوصاً في أيام التهاني والأعياد ، فتراهم يمشي بعضهم إلى بعض ، ولا يقتصرون على الهناء والسلام بل يمزجون ذلك بما ذكرته من تضييع الزمان .

فلما رأيت أن الزمان أشرف شيء والواجب انتهائه بفعل الخير كرهت ذلك وبقيت معهم بين أمرين : إن أنكرت عليهم وقعت وحشة لموضع قطع المألوف ، وإن تقبلته منهم ضاع الزمان ، فصرت أدافع اللقاء جهدي ، فإذا غلبت قصرت في الكلام لأتعجل الفراق » (١) .

وكلام الإمام هذا ينطبق - في الجملة - على حال كثير من اللقاءات والاجتماعات التي يقوم بها الناس اليوم .

(١) « قيمة الزمن عند العلماء » : ٢٨ .

ج - الانهماك في تحصيل المال بدعوى التجارة وحياسة المال النافع للإسلام وأهله ، ثم لا يلبث هذا الأمر أن ينقلب إلى تحصيل محض وحب للدنيا والانغماس فيها ، ومن ثمّ يقسو قلب الشخص وتنحط همته .

د - تكليف الموظف نفسه بعملين : صباحي ومساءلي بدون حاجة أو ضرورة ملجئة وإنما دفعه لهذا حُب هذه الدنيا والتمتع فيها .

هـ - كثرة التمتع بالمباح ، والترف الزائد ، والترفل في النعيم ، وكل هذه الأمور من العوامل الفتاكة القاضية على الهمة مهما قيل في تبريرها وتعليلها .

ذكر ابن حجر رحمه الله أن تاج الدين المراكشي - أحد فقهاء الشافعية - كان قد « انقطع بالمدرسة الأشرفية ملازماً للقراءة والاشتغال صبوراً على ذلك جداً بحيث يمتنع عن الأكل والشرب^(١) والملاذ بسبب ذلك »^(٢) .

وهذه الأمور من المباحات قطعاً ولكن ذلك الفقيه علم أن الإكثار منها والولع فيها سبب لسقوط الهمة وضعف العمل .

(١) أي عن فضولهما .

(٢) « الدرر الكامنة » : ٣ / ٣٨٧ .

وذكر السبكي في « الطبقات » أن أباه الإمام تقي الدين « كان من الاشتغال على جانب عظيم بحيث يستغرق غالب ليله وجميع نهاره . . كان يخرج من البيت صلاة الصبح فيشتغل على المشايخ إلى أن يعود قريب الظهر فيجد أهل البيت قد عملوا له فروجاً يأكله ويعود إلى الاشتغال إلى المغرب فيأكل شيئاً حلواً لطيفاً ، ثم يشتغل بالليل ، وهكذا لا يعرف غير ذلك ، حتى ذكر لي أن والده قال لأمه : هذا الشاب ما يطلب قط درهماً ولا شيئاً فلعله يرى شيئاً يريد أن يأكله فضعي في منديله درهماً أو درهمين فوضعت نصف درهم . قالت الجدة فاستمر نحو جمعتين وهو يعود والمنديل معه والنصف فيه إلى أن رمى به إلي وقال : أيش أعمل بهذا ؟ خذوه عني » (١) .

وهذا مثال على أن الفتيان إذا أحسن توجيهم وتربيتهم ارتفعوا عن الترف والتنعيم وأخذوا بأسباب المعالي والرفعة .

قال الإمام ابن القيم ، رحمه الله تعالى :

« قال لي يوماً شيخ الإسلام قدس الله روحه في شيء من المباح : هذا ينافي المراتب العالية وإن لم يكن تركه شرطاً في

(١) « طبقات الشافعية » ١٠ / ١٤٤ .

النجاة فالعارف يترك كثيراً من المباح برزخاً بين الحلال والحرام» (١) .

هذا والذي لام عليه الإمام ابن تيمية تلميذه «شيء من المباح» فما بالكم بما نراه اليوم من تمتع الدعاة بمباحات ونعيم لا يعرفه الملوك السالفون .

و - الاستجابة للصوارف الأسرية استجابة كلية أو شبه كلية ، فتجد الشخص منهمكاً في تلبية مطالب زوجه وعياله وقد لا تكون مهمة في أحيان كثيرة ، وقد يعترض معترض ويورد أحاديث لا تدل على ما ذهب إليه مثل « خيركم خيركم لأهله ، وأنا خيركم لأهلي » (٢) ومثل « كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يقوت » (٣) ، وغير ذلك ، وإنما هذه الأحاديث في الحث على إحسان الخلق مع الأهل وعدم تركهم وتضييعهم بالكلية كما لا يخفى . وقد دخلت علينا في حياتنا الأسرية كثير من التقاليد الغربية في أمر الاحتفاء الزائد بالأهل والأولاد ، ودعوى ضرورة بناء مستقبلهم وغير ذلك مما حصله نسيان الكفالة الإلهية والضمان الرباني .

(١) « مدارك السالكين » : ٢٦/٢ .

(٢) أخرجه ابن ماجه في كتاب النكاح باب حسن معاشره النساء ، وأخرجه كذلك الترمذي وابن حبان .

(٣) أخرجه أبو داود في كتاب الزكاة باب في صلة الرحم .

ز - التسويف :

وهو داء عضال ومرض قتال ، إذ أن « سوف » جند من جنود إبليس ، قال الشاعر :

ولا أدخر شغل اليوم عن كسل

إلى غدٍ إن يوم العاجزين غدٌ

ح - الكسل والفتور :

« لا بد للمرء من البعد عن الكسل لأنه قاتل للهمة مذهب لها ، وخاصة عند تقدم العمر وعجز الجسم ، فهذا شيخ الإسلام زكريا الأنصاري رحمه الله تعالى « كان يصلي النوافل من قيام مع كبر سنه وبلوغه مائة سنة أو أكثر وهو يميل يميناً وشمالاً لا يتمالك أن يقف بغير ميل للكبر والمرض ، فقليل له في ذلك فقال : يا ولدي ، النفس من شأنها الكسل وأخاف أن تغلبنى وأختم عمري بذلك » (١) .

(١) « الكواكب السائرة » : ٢٠٢/١ .

وهذه أقوال تبين ما في العجز والكسل والفتور من

آفات :

« ما لزم أحد الدَّعة إلا ذلّ ، وحب الهوينا يُكسب الذلّ ،
وحب الكفاية ^(١) مفتاح العجز » ^(٢) .

وقال صاحب :

« إن الراحة حيث تعب الكرام أودع لكنها أوضع ، والقعود
حيث قام الكرام أسهل لكنه أسفل » ^(٣) .

وقال الشاعر :

كأنّ التواني أنكح العجر ابنته وساق إليها حين أنكحها مهراً
فراشاً وطياً ثم قال له : اتكىء فقُصرا كما لا شك أن تلدا فقراً

وقد قيل :

زوّج العجز التواني فتتج بينهما الحرمان ^(٤)

(١) أي حب الاكتفاء بما عليه الإنسان وعدم الرغبة في التطور .

(٢) « محاضرات الأدباء » : ١ / ٤٤٨ .

(٣) « محاضرات الأدباء » : ١ / ٤٤٨ .

(٤) المرجع السابق .

ط - ملاحظة الخلق : أكثر الخلق مفرطون ، وهم في الغفلة غارقون فهم صوارف عن الهمة العلية حيث يُغتر بهم ويقلدون في تفريطهم ، فالحذار الحذار من غفلة الغافلين والاعتذار بها .

وقال الشاعر :

ترجو غداً وغداً كحاملة في الحيّ لا يدرون ما تلد

« والإسراع في القيام بعمل من الأعمال يُزيل ما فيه من العناء ، أما التأجيل فمعناه الإهمال . والعزم على العمل يصير مع الوقت عزماً على عدم العمل . وما أشبه من يعمل عملاً بمن يُلقى بذراً في الأرض فإذا هو لم يعمله في حينه فإنه يبقى إلى الأبد بدون ثمرة ، وليس صيف الزمان من الطول بحيث إن الأعمال المؤجلة تنضج ثمارها فيه » (١) .

(١) « سبيلك إلى الشهرة والنجاح » ١٠٦ .

« وإن للتأخر عواقب مشؤومة ، فتأخر يوليوس قيصر عن قراءة رسالة وردت إليه كلفته خسارة حياته حين بلوغه مجلس الأعيان الروماني ، والكولونيل راهل قائد موقع ترانتون لما جاءه رسول يحمل إليه كتاباً متضمناً نبأ اجتياز واشنطن لنهر ديلاور كان يلعب بالورق فوضع الكتاب في جيبه ولم يفرضه إلا بعد انتهاء اللعبة ، وللحال سار في مقدمة جنوده إلى ميدان القتال فقتل ثم أخذ رجاله أسرى ، فتأخر بضع دقائق جرَّ عليه خسارة الشرف والحرية والحياة »^(١).

هذان مثالان على ما يمكن أن يجره التسويف ، ولا تستهن أخي الداعية بعاقبته فإن التسويف في الدعوة وغزو القلوب قد يؤخر تسنم الشرف بتمكين دعوة الله في الأرض ، وقد لا تتاح الفرص المتوفرة الآن - على قلتها - في المستقبل القريب فتعض حينذاك أصابعك ندماً على ما فرطت فيه ، وتُحصر الدعوة بسبب

(١) المصدر السابق ص ١٠٤ .

تسويّفك أنت وأمّالك في مضايق لا عهد لها بها ،
والله الموفّق .



العلامات الدالة على علو همة الشخص

إضافة إلى كل ما ذكر يمكن أن نذكر التالي :

- ١ - تحرقه على ما مضى من أيامه وكأنه لم يكن قطُّ صاحب الهمة المتألق المنجز لكثير من الأمور ، وأكثر ما يكون ذلك على فراش الموت .
- ٢ - كثرة همومه ، وتأله لحال المسلمين وما يجدون من ظلم وعنت .
- ٣ - موالاته النصيحة وتقديم الحلول والاقتراحات - التي تقوم بالإسلام والمسلمين وتعزهم - لمن يأمل فيهم التغيير ويرجو منهم الإصلاح .
- ٤ - طلبه للمعالي دائماً فيما يفعله أو يتعلمه أو يصلحه .

يقول الأستاذ محمد الخضر حسين :

« طالب العلم الذي لا يدع باباً من أبوابه إلا ولجه . . . يكون أعظم همة ممن لا يطرق منه كل باب أو لم يعرج منه على كل مسألة

قيمة . وطالب العلم الذي يخوضه بنظر حر ويتناول مباحثه بنقد وبصيرة يكون أعظم همة ممن يجمع مسائله حفظاً ويتلقاها كما يتلقى حاكي الصدى لا يكلفك غير إملائها عليه « (١) .

٥ - كثرة شكواه من ضيق الوقت وعدم قدرته على إنجاز ما يريد في اليوم والليلة . وليست هذه الشكوى من غمط ما نسمع من تردد كثير من الناس لها ، ولكنها شكوى حقيقية نابغة من عمل دؤوب يستغرق أوقات الشخص فيبث تلك الآهات الصادقة .

٦ - قوة عزمه وثبات رأيه وقلة تردده ؛ فهو إذا قرّر أمراً راشداً لا يسرع بنقضه بل يستمر فيه ويثبت عليه حتى يقضيه ويجني ثمرته ، ولا شك أن كثرة التردد ونقض الأمر بعد إبرامه من علامات تدني الهمة .

إذا كنت ذا رأي فكن ذا عزيمة فإن فساد الرأي أن تتردد

وقال الشاعر أيضاً :

لكل إلى شأو العلى حركات ولكن قليل في الرجال ثبات

(١) « رسائل الإصلاح » : ٢ / ٩٠ - ٩١ .

كيفية استثمار هممة الناس

إذا عرفنا ذلك كله فيجب علينا أن نحسن استثمار هممة عند الناس ونستخرج منهم دفائن الكنوز وخبايا الصدور والعقول .

والناس أمام المسلم الصالح ثلاثة أقسام :

صالح ملتزم بدينه ومستقيم محافظ على الفرائض والواجبات ،
وثالث مضيع ضائع :

أما القسم الثالث فيترك حين إفاقة .

وأما القسم الثاني ، وهم المستقيمون المحافظون ولكن في استقامتهم ومحافظتهم تخليط فتستثمر همهم كما يأتي ، والله أعلم .

١ - إن كانوا من ذوي اليسار والغنى يوجهون للمشاركة في أعمال الخير العامة مثل بناء المساجد ، وإغاثة المنكوبين ، وإقامة المنشآت النافعة ونحو ذلك ، وخير ما يمكن أن يشاركوا فيه هو

تلك الهيئات والجمعيات الإسلامية المنتشرة في العالم الإسلامي ، ولله الحمد ، حيث إن الكوارث والنكبات التي تحيط بالعالم الإسلامي والتي توضحها وتبناها تلك الهيئات كفيلة بإثارة نوازع الشفقة والخير فيهم فينشطون للمساعدة بهمة جيّدة .

٢ - إن كانوا من ذوي الدخول المتوسطة ، وهذا حال معظم ذلك القسم وتلك الفئة ، فيوجهون إلى سماع الدروس الطيبة ، وخطب الجمعة النافعة التي يؤديها خطباء مشهورون بالتأثير على العامة .

٣ - ومن الحلول الناجحة لهذه الفئة هي توجيه شبابها وتحميسهم للمشاركة في الجهاد ؛ إذ كم سمعنا عن أشخاص من عامة الناس قد علت همتهم وارتقى بهم حماسهم حتى شاركوا في الجهاد الأفغاني - على سبيل المثال - وحسنت صلتهم بالله تعالى والتزموا هذا الدين ، ولله الحمد .

٤ - التوضيح والتبيين لهم بأنهم يضيعون أوقاتهم فيما لا يفيد فلو قضوا ذلك في مجالات أجدى وأنفع لكان حسناً .

٥ - توجيههم للقراءة النافعة ، إذ معظم تلك الطائفة أميو الثقافة وإن كانوا يحملون شهادات جامعية ، فقد عكف الناس

للأسف على متابعة أخبار بعينها وتركوا ما ينفعهم عاجلاً وأجلاً ويشير فيهم الغرام إلى دار السلام .

وأما القسم الأول فهو المعتمد عليه والمأمول منه الإصلاح والرقي بهذه الأمة ، ويمكن استثمار همم هذا الصنف كما يأتي ، والله أعلم :

١ - الانتساب إلى جمعية أو هيئة لها برنامج عمل محدد يُنجز من خلالها كثير من الأمور النافعة ، وذلك مثل بعض الهيئات الإغائية المنتشرة في العالم الإسلامي أو جمعيات البر أو لجان البر أو هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغير ذلك .

وليحذر الأخ من التأثير بما تشتمل عليه بعض هذه الهيئات من نوع خطأ أو ميل عن الحق فيترك العمل كلية لأجل هذا .

٢ - الانتساب إلى جماعة إسلامية صالحة من الجماعات المنتشرة في العالم الإسلامي ، وهي تعمل بجهد وإخلاص لإقامة دين الله تعالى ، والقائمون على تلك الجماعات لهم برامج محددة تصلح لاستثمار همم الشباب وإقامة عمل إسلامي نافع .

٣ - توعية الشخص المنصوح بأن يختار لنفسه مجالاً يبدع فيه ويبرز ويكون عطاؤه من خلاله بالغاً غايته ، وهمته في إنجازه

قوية عالية ، فمن وجد من نفسه انصرافاً للعلم وتحصيله
فليقبل عليه ، ومن وجد منها ميلاً إلى الأعمال الخيرية
والإغائية فليشارك إخوانه ، ومن وجد منها حباً للجهد
ومقارعة الأعداء فلا يتوان وليقدم على بركة الله تعالى ،
وهكذا .



محاذير موجهة لأهل الهمة العالية

هذه المحاذير التي سأذكرها خاصة بأهل الهمة العالية فقط وليست لغيرهم من متدني الهمم أو متوسطيها ، وذلك لأن فيها جملة من الأمور لا يفهمها غيرهم ولا يدركها سواهم .

وقد يقول قائل إن بعض ما أذكره في هذا الصدد قد يخالف ما تعارف عليه كثير من أهل الصلاح والالتزام والدعوة من أن التوازن مطلوب والهمة تكون بقدر ، وأنا أوافقهم ولا أخالفهم ولكن قد يبدو بعض ما أورده مخالفاً لمنطقهم الصحيح وليس الأمر كذلك .

١ - صاحب الهمة تحلق به همته دائماً فتأمره بإنجاز كثير من الأعمال المتداخلة في وقت واحد ، فليطعها بقدر ولا يستبعد ما تأمره به ، وفي الوقت نفسه لا يقوم به كله بل يأخذ منه بقدر ما يعرف من إسعاف همته له بالقيام به .

وتزاحم الأعمال على الإنسان ومحاولة القيام بها مجتمعة أمر لا ينكره أهل الهمة العالية ، ومثال ذلك رجل مسافر في قطار مع أهله للترويح والمتعة فهو في أثناء تجواله يتمتع بجمال

الطبيعة ، كما أن عليه أن يهتم بأطفاله وبنههم ويوجههم ، ولعله بيده كتاب يقرأه أو أمر ينجزه ، وهو - أيضاً - يتكلم مع زوجته ويلاطفها ، وتدور في مخيلته عدة أفكار وتحدث له كل هذه الأمور في وقت واحد وقد ينجزها على وجه مقبول ، وكذلك أهل الهمة تتزاحم عليهم الأعمال الكثيرة فينجزونها كلها أو معظمها .

وهناك محذور آخر خلال ذلك وهو أن :

٢ - صاحب الهمة العالية معرض لنصائح تثنيه عن همته وتحاول أن تذكره دائماً بأنه « ما جعل الله لرجل من قلوبين في جوفه » وأن صاحب الصنعتين كاذب والثالثة سارق ، وهكذا ، فالخفيف لا يلتفت لهذه النصائح إلا بقدر محدود وذلك لأن موجهي هذه النصائح قد تنشأ نصائحهم هذه لحسد اعتراهم من حال المنصوح ، أو لأنهم يجهلون ما يستطيع عمله هذا الرجل ذو الهمة العالية من أمور لا تدركها أفهامهم ولا تستطيعها همهم

قال ابن نباته السعدي :

أعاذلتي^(١) على إتعاب نفسي

ورعبي في الدجى روض السهاد^(٢)

(١) العذل : اللوم . (٢) أي تلومه على سهره الليلي .

إذا شام الفتى برق المعالي

فأهون فائت طيب الرقاد

٣ - وصاحب الهمة معرض لسهام العين والحسد فعليه بالأذكار
المأثورة ليدراً عن نفسه ما قد يصيبه من سهام القدر على يد
الحساد .

٤ - وصاحب الهمة قد تعتريه فترة وضعف قليل لما يراه من تدني
همم غالب الخلق فلا يحزن لأجل هذه الفترة وليوطن نفسه
على الإحسان وعلو الهمة مهما ضعف أو تخاذل من حوله ،
وأياً كان سبب الفترة التي تعتريه فهي أمر طبيعي يعتري
العاملين والسالكين وليتذكر حديث المصطفى ﷺ :
« لكل عمل شرة^(١) ، ولكل شرة فترة^(٢) .

٥ - وأهل الهمة العالية قد يكونون مفرطين في بعض الأمور التي
قد لا يرون فيها تعلقاً مباشراً بموضوع همهم وذلك مثل
بعض حقوق الأهل والأقارب فينبغي على من وقع في هذا
المحذور أن يلتفت إلى إصلاحه ولو بالقدر الذي يُبعد عنه
سهام اللائمين .

(١) الشرة النشاط والهمة ، والفترة : الضعف والانكسار .

(٢) « الترغيب والترهيب » للمنذري : ١ / ٥١ ، ورواه ابن أبي عاصم وابن حبان .

٦ - وقد تؤدي الهمة العالية بصاحبها إلى أن يتحمس تحمّساً اندفاعياً فيستعجل ويرتكب من الأخطاء ما كان يمكن تلافيه بقليل من التعقل وحساب العواقب ، وعلى من وقع في مثل هذا أن يعرف السنن الكونيّة وأن الأمر لا يحسم بين عشية وضحاها ، وليكن مثله سيداً ولي الهمة العالية ﷺ فقد كان يوصي أصحابه رضي الله عنهم بالعمل والصبر ، فالصبر لا غنى عنه لأهل الهمم .

٧ - وأهل الهمة العالية قد يتعرّضون لأمرٍ تؤثر في هممهم وتطلعهم إلى معالي الأمور ، وأعظم مثال على هذا التعرض للخلاف الحاصل بين الفقهاء بعين الذمّ والمقت ، ونقدهم والإقلال من شأنهم ، ومثاله أيضاً التعرض للجماعات الإسلامية العاملة على الساحة وذمها والتنقص من شأنها وإلصاق التهم بها بدون وجه شرعيّ معتبر في أحيان كثيرة ، ويمضي هذا الأخ سحابة يومه وليلته باحثاً عن الأخطاء متصيداً لها ، ومثل هذا الشخص إن أصبح هذا الأمر ديدنه فستتخلف همته ولا شك وتقعده عن معالي الأمور .

يقول الأستاذ محمد الخضر حسين :

« كبير الهمة يستين خطأ في رأي عالم أو عبارة كاتب فيكتفي

بعرض ما استبان من خطأ على طلاب العلم ليفقهوه ، ويأبى له أدبه أن ينزل إلى سقط الكلام أو يخفَّ إلى التبجِّح^(١) بما عنده ، وقد حدثنا التاريخ عن رجال كانوا أذكىاء ولكنهم ابتلوا بشيء من هذا الخلق المكروه ، فكان عوجاً في سيرهم ولطخاً في صحفهم ، ولو تحاموه لكان ذكرهم أعلى ومقامهم في النفوس أسمى ومنزلتهم عند الله أرقى^(٢) .

يقول ابن القيم رحمه الله تعالى :

« أعلى الهمم في طلب العلم طلب علم الكتاب والسنة ، والفهم عن الله ورسوله نفس المراد ، وعلم حدود المنزل ، وأخس همم طالب العلم قصر همته على تتبع شواذ المسائل ، وما لم ينزل ، ولا هو واقع ، أو كانت همته معرفة الاختلاف وتتبع أقوال الناس ، وليس له همة إلى معرفة الصحيح من تلك الأقوال ، وقيل أن ينتفع واحد من هؤلاء بعلمه » .

٨ - صاحب الهمة العالية لا بد له من المداومة على الأعمال التي تدوم ولا تنقطع :

(١) السرور .

(٢) « رسائل الإصلاح » ١/ ٨٩ .

الهمة طريق إلى القمة

وليتذكر صاحب الهمة العالية أن أحب الأعمال إلى الله « أدومها وإن قل »^(١) فهمة متوسطة العلو تدوم خير من همة عظيمة متقطعة .

ولنسق إليك أخي ثلاثة أمثلة نهديها إليك فيها دلالة على ما نقول ، وبها يختم هذا البحث إن شاء الله تعالى :

أما المثال الأول فهو الإمام أبو القاسم بن عساكر فقد قال عنه أبو المواهب بن صصرى :

« لم أر مثله ، ولا من اجتمع فيه ما اجتمع فيه من لزوم طريقة واحدة مدة أربعين سنة ، من لزوم الصلوات في الصف الأول إلا من عذر ، والاعتكاف في شهر رمضان وعشر ذي الحجة ، وعدم التطلع إلى تحصيل الأملاك وبناء الدور ، قد أسقط ذلك عن نفسه ، وأعرض عن طلب المناصب من الإمامة والخطابة وأباها بعد أن عرضت عليه وأخذ نفسه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، لا تأخذه في الله لومة لائم »^(٢) .

وهذا الشيخ كمال العباسي الكجراتي الهندي ، كان « من عوائده أنه كان يستيقظ في الليل إذا بقى ثلثه فيغتسل ويتهجد ،

(١) أخرجه البخاري عن عائشة رضي الله عنها في كتاب الرقاق باب القصد والمداومة على العمل .

(٢) « تذكرة الحفاظ » : ٤ / ١٣٣٢ .

ويقرأ سبعة أجزاء من القرآن في الصلاة ، ثم يدعو بالأدعية الماثورة ، ثم يذكر الله سبحانه ، ثم يصلي الفجر ، ثم يشتغل بتلاوة القرآن إلى صلاة الإشراق ، ثم يصلي ويجلس للدرس والإفادة فيدرس إلى زوال الشمس ، ثم يتغدى ومعه جماعة من المحصلين عليه ، ثم يقيل ساعة ، ثم يصلي الظهر ، ثم يجلس للإفتاء فيشتغل به إلى العصر ، ثم يصلي ، ثم يشتغل به ^(١) ، ثم يصلي ويقبل على أصحابه ، فيتحدث معهم إلى العشاء ، ثم يدخل في حجرته ويشتغل بمطالعة كتبه التي يدرسها إلى الثلث الأول من الليل ، ثم يدخل في المنزل ، وكان من الخامسة عشرة من سنة إلى أربع وخمسين صرف عمره على هذا الطريق ^(٢) .

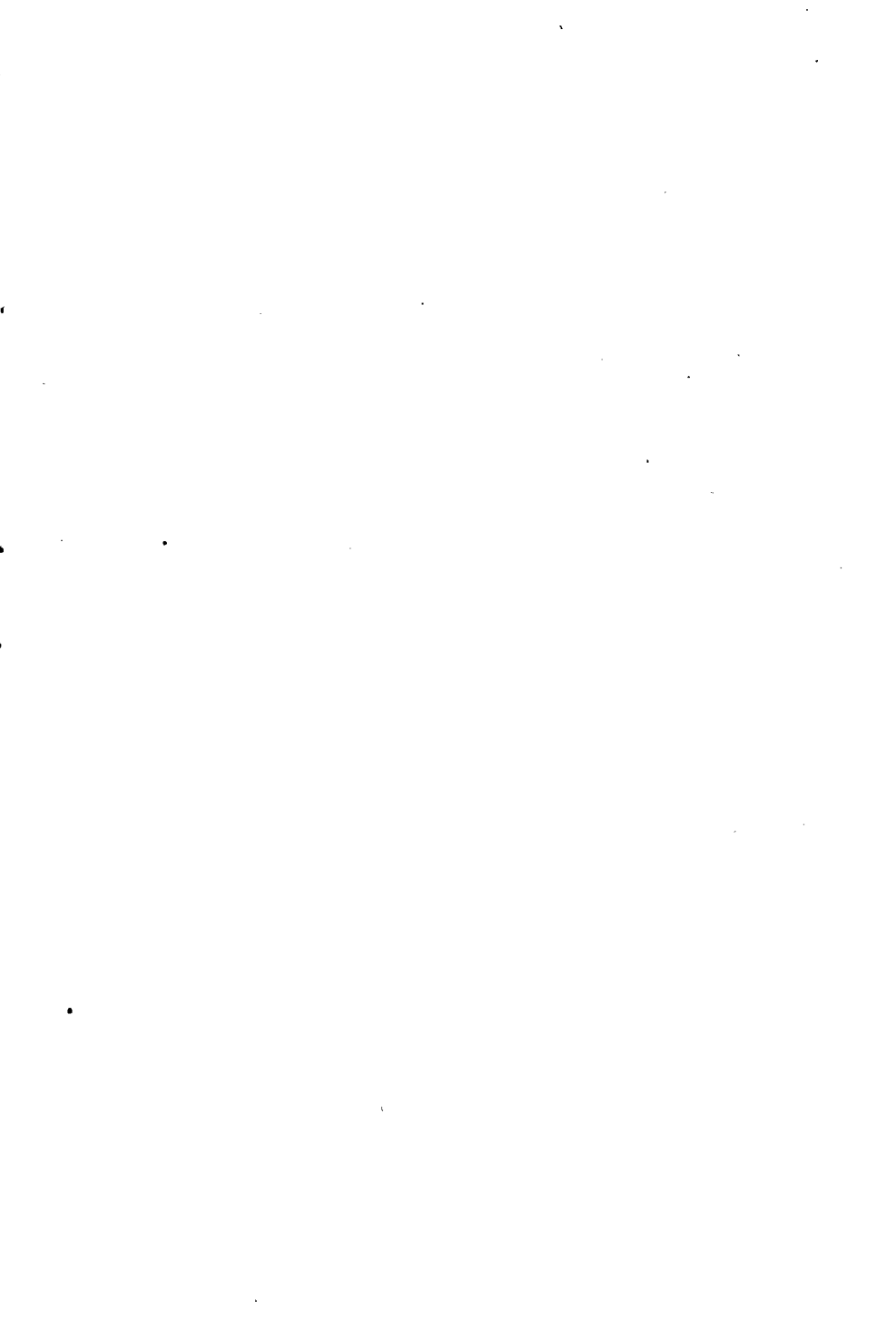
وقال أبو العباس ثعلب :

« ما فقدت إبراهيم الحربي من مجلس لغة ولا نحو ، من خمسين سنة » ^(٣) .

وفي الختام أسأل الله تعالى أن يجعلني والقارئ من أهل الهمة العالية وأن يبارك لنا في أوقاتنا وأعمالنا وصى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً .

(١) أي بالإفتاء . «الإعلام» : ٢٤٣/٥ .

(٣) «نزاهة الفضلاء» : ٩٨٢/٢ .



المصادر والمراجع

١ - القرآن الكريم

٢ - «الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام» للشيخ عبد الحيّ الندوي . تعليق سماحة الشيخ أبي الحسن الندوي . نشر دار عرفان . الهند . سنة ١٤١٢ هـ .

٣ - «تاريخ عمر بن الخطاب» ، للإمام ابن الجوزي ، دار إحياء علوم الدين ، دمشق ، بتعليق الشيخ أسامة الرفاعي .

٤ - «تذكرة الحفاظ» الإمام الذهبي ، دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان .

٥ - «تذكرة دعاة الإسلام» الأستاذ المودودي ، الدار السعودية للنشر والتوزيع ، جدة ، الطبعة الثانية سنة ١٤٠٧ هـ .

٦ - «ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك» القاضي عياض ، طبعة وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ، المغرب .

٧ - «تعليم المتعلم في طريق التعلم» . تأليف الشيخ برهان الدين الزرنوجي . تحقيق صلاح الخيمي ونذير حمدان . نشر دار ابن

- كثير . دمشق ، بيروت . الطبعة الأولى : ١٤٠٦ هـ
- ٨ - « حلية الأولياء » الإمام أبو نعيم الأصبهاني . دار الفكر . بيروت .
- ٩ - « الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة » ، ابن حجر العسقلاني تحقيق محمد سيد جاد الحق . نشر . دار الكتب الحديثة ، القاهرة .
- ١٠ - « الدلائل النورانية لطالب الربانية » عدنان الرومي وعلي الهزاع ، مكتبة المنار الإسلامية ، الكويت ، الطبعة الأولى سنة ١٤٠٥ هـ .
- ١١ - « ذيل طبقات الحنابلة » الإمام ابن رجب الحنبلي ، دار المعرفة ، بيروت .
- ١٢ - « رسائل الاصلاح » . تأليف الشيخ محمد الخضر حسين . نشر دار الإصلاح . الدمام .
- ١٣ - « روضة المحبين » الإمام ابن القيم ، توزيع دار الباز ، مكة المكرمة .
- ١٤ - « سبيلك إلى الشهرة والنجاح » أوريزون ماردن . دار الكاتب العربي ودار الشواف . الطبعة الأولى ١٩٩٢ .

- ١٥- سنن أبي داود وابن ماجه .
- ١٦- صحيحا البخاري ومسلم .
- ١٧- « الضوء اللامع لأهل القرن التاسع » للسخاوي ، نشر مكتبة دار الحياة ، بيروت .
- ١٨- « عمر بن عبد العزيز خامس الخلفاء الراشدين » تأليف عبد الستار الشيخ ، دار القلم ، دمشق . الطبعة الأولى : ١٤١٢ هـ .
- ١٩- « الفوائد » لابن القيم ، دار النفائس ، بيروت ، الطبعة الأولى سنة ١٣٩٩ هـ .
- ٢٠- « قيمة الزمن عند العلماء » الشيخ عبد الفتاح أبو غدة ، مكتب المطبوعات الإسلامية ، حلب ، الطبعة الأولى سنة ١٤٠٤ هـ .
- ٢١- « الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة » الشيخ نجم الدين الغزي . تحقيق جبرائيل جبّور . نشر دار الآفاق الجديدة . بيروت . الطبعة الثانية : ١٩٧٩ .
- ٢٢- « لفته الكبد إلى نصيحة الولد » للحافظ ابن الجوزي . المطبعة السلفية .

- ٢٣- « مجمع الزوائد ومنبع الفوائد » الحافظ الهيثمي . منشورات مؤسسة المعارف ، بيروت ، سنة ١٤٠٦ هـ .
- ٢٤- مجلة المجتمع عدد ١٣٦ ، ٩٩٨ .
- ٢٥- « محاضرات الأدباء ، ومحاورات الشعراء والبلغاء » لأبي القاسم حسين بن محمد الراغب الأصبهاني . نشر دار مكتبة الحياة . بيروت .
- ٢٦- « مدارج السالكين » ابن القيم ، دار الكتب العلمية ، بيروت طبعة سنة ١٩٧٢ م .
- ٢٧- « نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني » للشيخ محمد بن الطيب القادري . تحقيق الأستاذين محمد حجي وأحمد التوفيق - نشر مكتبة الطالب . الرباط . المغرب . الطبعة الأولى ١٤٠٣ هـ .
- ٢٨- « الوقت عمار أو دمار » جاسم المطوع ، دار الدعوة ، الكويت ، الطبعة الثانية ، سنة ١٤٠٨ هـ .
- ٢٩- « الوقت هو الحياة » د . عبد الستار نوير ، دار الثقافة ، قطر الطبعة الأولى سنة ١٤٠٦ هـ .

- ٣٠- « نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء » ، للمؤلف ، دار الأندلس ، جدة ، الطبعة الأولى سنة ١٤١١ هـ .
- ٣١- « نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب » الإمام أحمد بن محمد المغربي التلمساني بتحقيق الشيخ البقاعي ، الطبعة الأولى سنة ١٤٠٦ هـ ، دار الفكر ، بيروت .

● كتب المؤلف ●

- ١ - نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء .
مع فهرس موضوعية [٣] مجلدات .
الطبعة الأولى
- ٢ - استجابات إسلامية لصرخات أندلسية .
بحث تاريخي عن أواخر الدولة الإسلامية في الأندلس
الطبعة الثانية
- ٣ - المهمة طريق إلى القمة .
الطبعة الثانية
- ٤ - الطرق الجامعة للقراءة النافعة .
بحث عن منافع القراءة وطرقها ومناهجها .
الطبعة الأولى
- ٥ - التوازن عند التنازع في حياة المسلم
الطبعة الأولى
- ٦ - سلسوك الأدب جمال الحياة
الطبعة الأولى
- ٧ - « التلخيص في القراءات الثمان » .
للإمام أبي معشر الطبري . تحقيق ودراسة - رسالة ماجستير
الطبعة الأولى
- ٨ - « مختصر الفتوح المواهبي في سيرة الإمام الشاطبي » .
الطبعة الأولى
- ٩ - المختار المصون من أعلام القرون .
وهو تنمة نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء .
الطبعة الأولى

محتويات الكتاب

الصفحة	الموضوع
٥	١ - تمهيد
٧	٢ - مقدمة الطبعة الثالثة
٩	٣ - مقدمة الطبعة الأولى
١٣	٤ - معنى الهمة وأقسامها
١٧	٥ - مراتب الهمم
٢٧	٦ - أهمية علو الهمة في حياة الإنسان المسلم
٢٨	أولاً : تحقيق كثير من الأمور مما يعده عامة الناس خيالاً لا يتحقق
٣٣	ثانياً : الوصول إلى مراتب عليا في العبادة والزهد
٣٦	ثالثاً : البعد عن سفاسف الأمور ودنياها
٣٨	رابعاً : الاعتماد على صاحب الهمة العالية وإيكال الأمور إليه
٣٩	خامساً : الاستفادة من الوقت
٤١	سادساً : صاحب الهمة العالية قدوة للناس
٤١	سابعاً : تغيير طريقة حياة الأفراد والشعوب

الصفحة	الموضوع
٤٣	٧ - وسائل ترقية الهمة
٤٣	(١) المجاهدة
٤٥	(٢) الدعاء
٤٦	(٣) الاعتراف بقصور الهمة وضرورة تطويرها
٤٦	(٤) قراءة سير السلف
٤٨	(٥) مصاحبة صاحب الهمة العالية
٤٨	(٦) مراجعة جدول الأعمال اليومي
٤٩	(٧) التنافس والتنازع بين الشخص وهمة
٤٩	(٨) الدأب في تحصيل الكمالات والتشوق إلى المعرفة
٥٠	(٩) الابتعاد عن كل ما من شأنه الهبوط بالهمة وتضييعها. وفيه ثمان نقاط مهمة :
٥٠	أ - كثرة الزيارة للأقارب
٥٠	ب - كثرة الزيارة للأصحاب
٥٢	ج - الانهماك في تحصيل المال
٥٢	د - تكليف الموظف نفسه بعملين بدون ضرورة
٥٢	هـ - كثرة التمتع بالمباح والترف الزائد

الصفحة	الموضوع
٥٤	و - الاستجابة للصوارف الأسمية استجابة كاملة
٥٥	ز - التسوية
٥٥	ح - الكسل والفتور
٥٧	ط - ملاحظة الخلق
٦١	٨ - العلامات الدالة على علو همة الشخص
٦٣	٩ - كيفية استثمار همة الناس
٦٧	١٠ - محاذير موجهة لأهل الهمة العالية
٥٧	المصادر والمراجع
٨١	محتويات الكتاب